

اضحك للحياة



مازلتُ أتذكر صديقتي التي رافقتني في مقاعد الدراسة ، وتلاحمت مع أفكاري وطفولتي
ونُضجتي، فأصبحت جزءاً مني.
فهي طفولتي التي مرّت كالْحُلُم الجميل.. وهي مراهقتي وتفاصيل صباي بكل ما تحمله من طُهرٍ
وبراءة.

أحببتها من كلِّ قلبي.. وانسجمتُ بعذوبة مع شخصها النقي.
كنا نجري معاً نتسابق أينا تدخل الفصل أولاً، وأنا مَن أسبقها دائماً فتتقبَّل الأمر
باتسامة..

عجبة تلك الابتسامة النقية التي تتقنها، على الرغم من انتصاري عليها في كلِّ مرّة.

وكأنها تُهديني ذلك الانتصار إهداءً..

كانت أثناء الحصة تنظر إليّ وتُحاول الإشارة نحوي، وحين ألتفت إليها تقلب عينيها وتُحملك في
بطريقة غريبة وكأن عينيها تشكوان الحول.. فلا أتمالكُ نفسي وأُقهقه ضاحكة من جرأتها.

وحين تسألني أستاذتي لمَ أضحك، أقف لأوضح لها السبب أفاجأ بصديقتي وقد عادت ملامح وجهها
لطبيعته.. فأخرج، وأعرض للعقاب وحدي بسببها.

أنتظر انتهاء الحصة لأعاتبها فتدرد عليّ مُبتسمة: "هذه بتلك يا صديقتي، ففي الصباح دائماً
تسبِقيني للفصل، وفي الحصص يأتيني دوري لأشفي غليلي وأستمع بمنظرك حين تعاقبين بسبي".

صديقتي تحب المرح.. وتعيش بعفوية ونقاء مع كلّ الموافق..

يا ا ☐ كم أُحبها، وكم هي رائعة..

أذكر أنني عندما مرضت ولم أتمكن من الذهاب إلى المدرسة لمدة أسبوع

قدّمت مع أمها لزيارتي.. ورأيت الدموع في عينيها لأوّل مرة حين قبلت رأسي واحتضنتني..

علمتني دموعها كيف تكون الصديقة حنونة.. وفيّة.. دافئة..

رأيتُ في عينيها الطهر والنقاء في المعشر والصحة..

كم هي وفيّة.. وكم تُعجبني حتى في تصرفاتها الصبائية التي تجعلني أضحك بهستيرية..

يلفتني جمال عينيها وابتسامتها الطفولية المحبّة من قبل الجميع.

حين كنتُ أياس أو أشعر بالكآبة، ألجأُ إليها لتشد من أزري وتخفف عني دائماً.. فليدها أسلوب في التعامل أظنه كالسحر.

كنت أتعجب لقوّة إرادتها التي لا تثنّيها الأيام والصعاب.. لم أرَها يوماً شاكية، مُتذمّرة.. على العكس تماماً فلقد كان شعارها:

"اضحك تضحك لك الحياة".

وعلى ذكر هذا الشعار كنا في يوم من الأيام نقف صباحاً في الطابور، وكانت المعلمة تُنادي عبر مكبّر الصوت لتتقدم إحداً وتُلقي على مسامع الجميع حكمة هذا الصباح..

ساد الصمت بين الصبايا.. فإذا بي أفاجأ بصديقتي تنطلق من صف الطابور وتحت الخطى متجهة نحو المعلمة.

التقطت مكبر الصوت بكل ثقة ونظرت نحوي..

هذا المشهد جعلني أبتسم لا إرادياً، فلطالما أعجبتني جرأتها وحاولت تقليدها مراراً، ولكني لم أكن أفصح فجرأتها كانت بالفطرة.. بينما كنت أنا أصطنع الجراءة فأفشل.

ذلك اليوم، عندما التقطت المكبّر ابتسمت ابتسامتها الطفولية تلك، وبأعلى صوت صاحت: "اضحك للعالم تضحك لك وابك تبك وحدك".

لابدّ أن ذلك الشعار كان مُتأصلاً في ذاتها.. ولا بدّ أنّه يعني لها الكثير.. كان دَوّي التصفيق عالياً من الإدارة والتلميذات، فقد كانت هذه الرائعة محبوبة من قبل الجميع..

ولم تكن أخلاقها كأخلاق فتاة عادية.. فليدها تهذيب مُتميّز يجعلها تمتلك كلّ القلوب وتأسرها.

الكل حولها كانوا يتعلمون من إرادتها وقوة صبرها وحبها للحياة..

روحها الجميلة بعثت في أرواحنا الجمال.. وأسلوبها المرح يُضفي على الجو المُتعة والطيبة.

ما زالت ذكرها تعني لي الكثير.. الكثير..

واليوم، حين تأملت الصورة الجماعية التي تجمعنا، لمعت عيناى بالدموع..

لأنى يوم الصورة كنت أمتنع عن التصوير، ورفضت أن أقف أمام الكاميرا بحجة أن هندامى لم يكن لائقاً.. عاندتها حين توسلت إليّ..

لكنها حسمت الأمر ووقفت إلى جانبى مُحكمة يديها على يدي ضامة أصابعها حول أصابعى وصاحت مُشيرة لإحدى الزميلات لتقوم بالتقاط الصورة بسرعة.

الحقيقة أنى ابتسمت من حركتها هذه وكانت الصور حميمة ورائعة على الرغم من امتعاضى.

ابتسم كى تظهر الصورة حلوة.. هكذا تقول الحكمة..

اليوم أمعنتُ فى وجوهنا جيداً وكأنى أراها لأول مرة.. فلمحتُ الحزن الذى كان جاثماً على ملامحها ولامعاً فى عينيها رغم أنها كانت تبتسم..

كيف لم أكن أعر الأمر اهتماماً حينها.. وكيف لم أعرف حقيقة تلك الابتسامة؟ فقد كانت تعانى مرضاً خبيثاً وأنا آخر مَنْ يعلم.

كنت أنا مَنْ يسبقها كلَّ صباح لباب الفصل بينما هى يهزمها المرض ويُنْهكها. فتُقابل كلَّ ذلك بابتسامة.

كيف لى أن أفخر بذلك؟ رباه كيف أنى لم أدرك الأمر؟

تلك الصورة هى آخر اجتماع لنا..

فقد كانت تلك الأيام فى آخر صراعها مع المرض..

وعلى الرغم من أنَّهُ أرهقها، إلا أنَّهُ لم يتسرب إلى ذاتها ولم يثنِ عزيمتها.. رباه ألا يدرك هذا المرض أنَّهُ صرع أجمل مخلوقه وأطيب قلب على وجه الأرض..

كلما عدتُ إلى نفسى أنبشُ أوراق مذكرتى لأعيش ذكرها..

وكلما أخذنى الحنين أبعثر أكوام الكتب وأتصفحها حتى أقرأ أيامنا وأستعيد تلك الملامح الوفية.

اليوم، أخذتُ تلك الصورة ووقفتُ على الشاطئ أستعيد أيامى وذكرياتى الحميمة مع تلك الصديقة.

تذكرتها حين راقبتُ موج البحر..

كأنها وذلك الموج مواليد نطفة واحدة..

كانت الأمواج هائلة، تثورُ كأنها ناقمة غاضبة.. لكنها حنونة.. حنونة جدّاً...

قمت بتقليب الصورة، فأبصرت من بين دموعى جملة بخط يدها

"اصحك للدنيا تضحك لك وابك تبك وحدك".